

أثر القرآن الكريم في شعر الأخطل

د. إسماعيل أحمد العالم

جامعة اليرموك

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذ لم يُتَح لأمة من الأمم كتاب مثله من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب، فهو معجزة بيانية، ومن الطبيعي ألا تمر هذه المعجزة البيانية بحياة العرب من دون أن تؤثر في أدبهم، فقد أثر القرآن في الأدب العربي تأثيراً كبيراً سواء من حيث اللغة والأسلوب أم من حيث المعاني والأفكار أم من حيث الصور والأخيلة. صحيح أن القرآن الكريم نزل واللسان العربي قد صقلته فصاحة الأعراب، يصوغ تجارب الحياة وأحداثها في مثل وحكمة، ويفسرها في سجة وينثرها في خطبة وينظمها في قصيدة، وكان هذا اللسان العربي قد قطع دهرأ من عمره الفني يخترع المعنى وينتقي اللفظ ويرسم الصورة ويتقن الأسلوب، فلم يكن للقرآن ليُري القوم إعجازه ومعجزته إلا أن يأتيهم بأسلوب لم تألفه صياغة القول عندهم من قبل، أسلوب يدهش الفكر والذوق واللسان، فجاء فريداً في نظم آياته، بديعاً في أداء أغراضه، رائعاً في عرض صوره ومخترعات بلاغته، له بلاغة القول الرفيع وبلاغة أخرى لم يعرف سر رقتها وبيانها وأحكامها. وله وقع الشعر في النفوس، ووقع جديد يحسن به السامع ولا يحدده، وله موسيقى السجع ولكنه ليس من السجع المعروف، وله من رقة النثر الفني وطلاوته كل ما وفره الفن للنثر من سسماحة اللفظ ورقة العبارة، وانسجام الرصف وراحة الفواصل واكتمال المعنى وتلاحق الأفكار. وظل، إلى ذلك، كما وصف نفسه ﴿قُلْ لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُ على أن يسأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^(١).

(١) سورة الإسراء، الآية رقم ٨٨.

وليس في نيتنا هنا الكلام على الخصائص الفنية لأسلوب القرآن، فقد عقدت لذلك دراسات عديدة منذ أن فقه العرب هذا السفر الجليل. وما زالت هذه الدراسات تتوالى وتحوم حوله من دون أن تقع على سرِّ إعجازه وبلاغته، وظل بعد طول الدرس والتحليل واختلاف الأجيال "قرآنًا" لا هو شعر ولا هو نثر. إنما الذي يعنينا هو موقف الأدباء منه وأثره في بعث الفكر العربي وما فتحه له من دروب للمعرفة.

لا شك أن الشعراء كانوا من أوائل الذين اهتموا بتدبر القرآن ودراسته، ذلك لما لهم من كفاءات فنية ومعرفة طبيعية في فنون القول وأساليب التعبير، بالإضافة إلى أنهم كانوا يمثلون الطبقة المثقفة التي تُعنى بمثل هذه الأمور والتي يهملها أن تتدارس ما يجد على ميدان عملها. وليس أدلّ على هذا الاهتمام من كثرة الشعراء الذين أسلموا على يد الرسول الأكرم بعد أن استمعوا إلى قرآنه مادة وأسلوباً. ويبدو أن بعض الشعراء قد انكبّ على دراسة القرآن مأخوذاً بمادته وأسلوبه حتى شغل به عن مزاولة نظم الشعر، فقد روي أن عمر بن الخطاب سأل لييد بن ربيعة عما أحدثه من الشعر في الإسلام، فقال لييد: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وسورة آل عمران، فزاد عمر في عطائه فبلغ به ألفين^(١).

ويبدو أن الانصراف إلى دراسة القرآن الكريم لم يكن بدافع الرغبة الشخصية وحدها، بل أن المسؤولين كما تشير إليه الرواية، قد عملوا على تشجيع الناس على دراسة القرآن، ومن صور هذا التشجيع أن الخلفاء والأمراء المسلمين

(١) الجمحي، محمد بن سلام (ت ٢٢١هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٣، ج ١، ص ١٣٥، وما بعدها.

كانوا يهييئون بالأخطل إلى اعتناق الإسلام، ويحضوننه على التخلي عن نصرانيته^(١).

ومهما يكن من أمر فقد انتشر القرآن بانتشار الإسلام، وعمل المسؤولون - التزاماً بفروض الرسالة - على اطلاع الناس عليه، فكثرت المفسرون والقراء، وكثر حفاظه ورواة قصصه، وأصبح بالإضافة إلى كونه دستوراً ينظم شؤون الحياة الإسلامية، مصدراً ضخماً من مصادر الثقافة والحركة الفكرية عند العرب، وكان الأدب شعراً ونثراً أشدَّ جوانب هذه الحياة تأثراً بالقرآن، ذلك لأن الشعر والخطابة كانا وسيلة العصر للتعبير عن شؤون حياته العامة، ولما كان القرآن قد جاء ليقيم هذه الحياة على نمط جديد، كان الأدب بحكم دوره المذكور عنصراً من عناصر هذه التجربة، فلم يكن له بطبيعة الأمر أن يظل في معزل عنها، ولم يكن لآثارها أن تظهر عليه إلا حين يستوي لها الأمر، وتقطع المرحلة الطبيعية من مراحل وجودها، وهي مرحلة التثبيت والاستقرار، وإذا رأينا أن أثره ظل مقتصرأ على خطب الخلفاء الراشدين وشعر بعض الشعراء الذين دافعوا عن الرسول الأعظم، ذلك لأن العرب في هذه الفترة كانوا ما زالوا في دور دراسة القرآن والاطلاع عليه، غير أن آثاره ستظهر جلية واضحة في أدب النصف الثاني من القرن الأول، حين بدأ التأثير والتمثيل والاستيعاب لأدب القرآن ومادته، وهذا ما سنحاول عرضه في ميدان واحد من ميادين الإنتاج الأدبي وهو الشعر، وفي شعر شاعر من هذه الفترة وهو الأخطل.

ولد الأخطل نحو سنة عشرين في الحيرة^(٢)، ونشأ فيها يقول الشعر مغرمأ بالهجاء، وكان جريئاً على الناس، سفية اللسان، فلقب بالأخطل، وما أن شبَّ

(١) الأصفهاني، أبو الفرج (ت ٣٦٠هـ)، الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٣، ج ٨، ص ٢٩٠.

(٢) الحاوي، إيليا سليم، شرح ديوان الأخطل التغلبي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢١.

الأخطل حتى وجد نفسه في دولة إسلامية وفي أمة تقرأ القرآن وتفسره، وتقيم حياتها على ما رسمه من قواعد وما تستنبطه منه من تشريعات وأحكام. وكان كلما تقدم به العمر وجد نفسه في حركة فكرية إسلامية دائمة، تمثلها هذه الطوائف والشيع التي اشتجر بينها الخلاف، فاشتد بينها الجدل والكلام، وكل يحاول أن يصدر في حججه ورأيه عن القرآن، وكان من فضل ذلك أن اشتدت الثقافة القرآنية، وبدأت الحياة العامة تصطبغ بصبغة الإسلام.

أما عن الجانب الديني من حياة الأخطل الخاصة، فقد كان يدين بالنصرانية، ولم يتأثر بالتعاليم الإسلامية تأثراً وجدانياً، بل تأثراً سياسياً لم يصرفه عن نصرانيته ويحفزه إلى اعتناق الدين الإسلامي، وكان تشبُّهه بمثل الجاهلية وحرصه على تقاليد البادية قد دعاه إلى أن يستهين بالقيم الخلقية والدينية التي أرسى دعائمها الإسلام، وليس معنى ذلك أنه كان يأخذ نصرانيته مأخذ ثقة ودرس، بل أنه فطر عليها وجرى فيها مجرى التقليد، واعتصم بها من ضمنه اعتصامه بقبيلته تغلب المتعاضمة بذاتها^(١).

ولسنا هنا في سبيل التأييد أو التفنيد لما خلع على الأخطل من صفات الاستهانة، وإن كنا نعتقد أن الإيمان بالنصرانية لم يدخل قلبه، وأن الحاكم الأموي الذي يدين بالإسلام لم يرق طبعه الذي اتسم بالعنف واللغة والإقذاع، استحال الشاعر معها إلى نقیض من الشعور بالكبر وعظم القدر إذا أمّدها بذلك العنجهية التي أخذت تتفح من روحها في مدائحه ومفاخره وأهاجيه، فهو يعيش بشعوره وعواطفه في الجاهلية، يهجم على اللذة متهكاً، ويفتخر بذلك، ولا يبالي أن

(١) الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ) شرح القصائد العشر، تحقيق كارلوس لیسال، ١٩٦٢، ص ١٠٨.

يصم نفسه بالزنا وشرب الخمر في بلد إسلامي، يتخرج فيه الناس من إعلان هذه الآثام الغليظة، وينكرونها أشد الإنكار^(١).

وسواء أكان الأخطل فاسقاً مستهتراً أم متظاهراً بعدم الانفكاك من دين النصرانية، فإن ديوانه يدل على ثقافة إسلامية ومعرفة بالقرآن الكريم، واطلاع على أحكامه وقصصه ومعانيه وصوره، وتأثر بهذا الأسلوب، وتقليد واضح لصياغته، وأخذ واسع من ألفاظه وتعبيره، بالإضافة إلى استعماله لغير قليل مما شاع من المصطلحات، والألفاظ التي جذت مع الحياة الإسلامية.

ومن ألوان هذا التأثير بالقرآن، أن الشاعر يرى فيه دستوراً وشرعة للحياة إذ يقول^(٢):

حَسَدُ عَلَى الْحَقِّ، عِيًّا فَو الْخَنَى أَنْفُ	إذا أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهَةً صَبِرُوا
وإنْ تَدَجَّتْ عَلَى الْآفَاقِ مُظْلَمَةٌ	كانَ لَهُمْ مَخْرَجٌ مِنْهَا وَمُعْتَصِرُ
أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جِدًّا، يَنْصُرُونَ بِهِ	لا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ، بَعْدُ، مُحْتَقِرُ
لمْ يَأْشُرُوا فِيهِ، إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ	ولو يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ، أَشُرُوا
شمسُ الْعَدَاوَةِ، حَتَّى يَسْتَقَادَ لَهُمْ	وأَعْظُمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

مقتبساً هذه المعاني من عدة آيات:

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣).

و﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٤).

(١) الأغاني، ج ٨، ص ٢٩٠.

(٢) شرح ديوان الأخطل، ص ١٧١.

(٣) سورة لقمان، الآية رقم ١٧.

(٤) سورة البقرة، الآية رقم ٢٥٧.

و«نِعْمَةٌ مِن عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ»^(١).

و«... أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»^(٢).

و«وَالكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ»^(٣).

وقوله:

والناس همُّهم الحياة وما أرى	طول الحياة يزيد غير خيال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد	دُخْرًا يكون كصالح الأعمال
ولئن نجوت من الحوادث سالما	والنفس مشرفة على الآجال ^(٤)

مقتبس من الآيات القرآنية:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...»^(٥).

«وَقَرِّحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا»^(٦).

«وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْنًا»^(٧).

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا»^(٨).

(١) سورة القمر، الآية رقم ٣٥.

(٢) سورة الفتح، الآية رقم ٢٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٢٤.

(٤) شرح ديوان الأخطل، ص ٢٤٨.

(٥) سورة النحل، الآية رقم ١٠٧.

(٦) سورة الرعد، الآية رقم ٢٦.

(٧) سورة النحل، الآية رقم ٧٠.

(٨) سورة فصلت، الآية رقم ٣٣.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...﴾^(١).

وقوله:

أعاذل، إن النفس في كَفِّ مالكِ
ذريني فلا مالي يَرُدُّ متبئسي
وليس بخيل النفس بالمال خالداً
إذا ما دعا يوماً، أجابت له الرُسُلُ
وما إن أرى حياً على نفسه قفلاً
ولا من جواد، فاعلمي، ميتٌ هُزلاً^(٢)

مأخوذ من الآيتين الكريمتين:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بروجٍ مُّشْتَدَةٍ﴾^(٣).

و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٤).

وقوله:

فلَمَّا أَغْرَيْنَا أَغْنَيْنَا عَنْهُمْ
وذو العرشِ يُعْطِي من جزيلٍ ويمنحُ^(٥)

استلهمه من الآية الكريمة:

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٦).

(١) سورة العنكبوت، الآية رقم ٥٧.

(٢) شرح ديوان الأخطل، ص ٥٦٣.

(٣) سورة النساء، الآية رقم ٧٨.

(٤) سورة الرحمن، الآية رقم ٢٦.

(٥) شرح ديوان الأخطل، ص ٦٤٤.

(٦) سورة النور، الآية رقم ٣٨.

ويدعو القرآن الكريم إلى عدم الاغترار بالحياة لأنها غير خالدة، وإلى عدم الندامة على ما فات أو التحسر عليه، مستلهماً ذلك من الآيتين الكريمتين ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(١)، و﴿لَكِنَّهَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ...﴾^(٢)، إذ قال:

أَغْرُ لَا يَخْسِبُ الدُّنْيَا تَخْلُدُهُ وَلَا يَقُولُ لشيءٍ فَاتٍ مِمَّا فَعَلَا^(٣)

ويدعو إلى الإيمان بطيب المقام في جنة الله إذ ينعم المؤمنون بالطمأنينة، وينعم بها أسراب الطير حين تغرد في أرجائها أمنة، يقول:

فِي جَنَّةٍ هِيَ أَرْوَاحُ الْإِلَهِ فَمَا يَقْزَعُ الطَّيْرَ فِي أَغْصَانِهَا فَرْعُ^(٤)

مستلهماً قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٥)، و﴿... وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾^(٦).

ومن يتفحص شعر الأخطل في ديوانه يجده قد تأثر بالقرآن ففي مدحه وفخره وهجائه وراثته وغزله، إذ يعمد إلى معاني القرآن وصوره يقبس منها ويحلي بها معانيه وصوره الشعرية، فصورة ممدوحه الوليد بن عبد الملك أمين الله وحصنه الحصين الذي لا يقهر إذ يفرع الناس إليه، فيغدق على النفس الأمن، ويهبها العطايا، ويصرف عنها الذعر مستبدلاً به الطمأنينة وثبات القلب والقدم،

(١) سورة لقمان، الآية رقم ٢٣.

(٢) سورة الحديد، الآية رقم ٢٣.

(٣) شرح ديوان الأخطل، ص ٣٥١.

(٤) شرح ديوان الأخطل، ص ٢٠٨.

(٥) سورة الفرقان، الآية رقم ٢٤.

(٦) سورة النمل، الآية رقم ٨٩.

مستلهماً ذلك كله من قوله تعالى: ﴿وَلَيَبْذِلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(١)، و﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(٢)، و﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾^(٣)، إذ قال:

إنَّ الوليدَ أُميرُ الله أنقذني	وكان حصناً إلى منجائه هَرَبِي
أُتيتُه وهمومي غيرُ نائمة	أخا الحِذار، طريدَ القتلِ والهَرَبِ
فأمنَ النفسَ ما تخشى، ومولِّها	قَدَمَ المواهب من أنوائه الرُّغَبِ
وثبتَ الوطاء مني، عند مُضَلِّعة	حتى تخطيَّتها، مُستَرخياً لبيبي ^(٤)

وهذه صورة أخرى يبتدع فيها الأخطل المعاني التي توحى للقارئ بعظمة الممدوح همَّام بن مطرّف التغلبي، ويقول إنَّ همَّاماً لو كان من الجنِّ لقام على رأسها ولخضعت له، مستلهماً قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾^(٥)، إذ قال:

قلو كان همَّامٌ من الجنِّ أصبحت سَجُوداً له جنُّ البلادِ وغولها^(٦)

وعندما مدحه تذكّر أن يخلع عليه صفة الرحمة إذ يمطر الناس بفضله، وإن موته يجعل الأرض تفنقر إلى مثيل له يقوم مقامه ويحمل أعباءه، وجدنا الأخطل يفرع إلى القرآن ويستعين بالآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

(١) سورة النور، الآية رقم ٥٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية رقم ١١.

(٣) سورة آل عمران، الآية رقم ١٠٣.

(٤) شرح ديوان الأخطل، ص ٢٨٢.

(٥) سورة الرعد، الآية رقم ١٥.

(٦) شرح ديوان الأخطل، ص ٣٥٨.

لِلْعَالَمِينَ»^(١)، فخلق منها صورة شعرية رائعة جسّد بها صفات الممدوح حين قال:

فإن عاش همّام لنا فهو رحمة من الله، لم تُنَفَسْ علينا فضولها
وإن مات لم تستبدل الأرض مثله لأخذ نصيب، أو لأمر يعولها^(٢)

ولما اعتزّم مدح عبد الله بن معاوية جال في خاطره ما ناله من فضل عبد الله وكرمه، فلواه لغشي الشيب شعره من هول ما كان أصابه من أناس حنّاقين عليه، يتربصون للغدر به، فشذّ عبد الله من أزره وأنقذه من شرهم، بادر الأخطل إلى القرآن يعتمد على تصويراته في غير آية، فأجاد وأبدع في توظيفها حين استلهم قوله تعالى: «اشدّد به أزرِي وأشركه في أمرِي»^(٣)، و«فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ»^(٤)، إذ قال:

لولا فواضله غداة لقيته بالجّد شاب مسايحي وغازي
مِنْ معشر حنّاقين لولا أنتم يا بن الخليفة ما شددت إزاري
والشافعون مغيّبون وجوههم رزمو المقالة ناكسو الأيصار^(٥)

وحين أراد أن يمدح عبد الملك بن مروان، انعطف الأخطل إلى القرآن العربي المبين يستلهم آياته بمعانيها وصورها، فعبد الملك يغفر ذنوب الناس، ويبدد ضلال الضالين في البلاد بنوره، إذ يعيدهم إلى سواء السبيل بعد أن أوشكوا أن يميلوا عنه، فلما قال:

(١) سورة الأنبياء، الآية رقم ١٠٧.

(٢) شرح ديوان الأخطل، ص ٣٦١.

(٣) سورة طه، الآيتان رقم ٣١، ٣٢.

(٤) سورة الشعراء، الآية رقم ١٠٠.

(٥) شرح ديوان الأخطل، ص ١١١.

أحيا الإله لنا الإمام فأنبأه نور أضاء لنا البلاد وقد دجيت
خير البرية للذنوب غفور ظلم تكاد بها الهداة تجور^(١)

اتكأ الأخطل في معانيه الجميلة في هذين البيتين الشعريين على قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجُ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٢)، و﴿وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾^(٣)، و﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(٤)، و﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾^(٥)، و﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(٦).

وعندما أراد أن يمدح قوم جرير بن عبد الله البجلي إذ أجازوا تغلباً في زمن يتنكر فيه الوالد لولده، تذكر ما يتسمون به من تقوى وقيام للصلاة في المساجد، وإيمان بالله الواحد الأحد، مصوراً ذلك أحسن تصوير؛ مستوحياً المعنى ومستلهماً الصورة من بعض المشاهد القرآنية كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقَوْا...﴾^(٧)، و﴿...الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(٨)، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ﴾^(٩)، حين قال:

-
- (١) شرح ديوان الأخطل، ص ١٩٤.
 - (٢) سورة إبراهيم، الآية رقم ٥.
 - (٣) سورة المائدة، الآية رقم ١٦.
 - (٤) سورة آل عمران، الآية رقم ٣١.
 - (٥) سورة المائدة، الآية رقم ١٨.
 - (٦) سورة البينة، الآية رقم ٧.
 - (٧) سورة الإسراء، الآية رقم ٣١.
 - (٨) سورة المؤمنون، الآية رقم ٢.
 - (٩) سورة الإخلاص، الأيتان رقم ١، ٢.

فقد أجازوا بإذن الله عُصَبَتَا إذ لا يكادُ يحبُّ الوالدُ الولدَا
قومٌ يظَلُّونَ خُشْعاً فني مساجدهم ولا يدينون إلا الواحدَ الصَّمَدَا^(١)

ولمّا أراد أن يهجو بني عبس بن بغيض بالخبث واللؤم والغباء، رأى الناس لا يترحمون على موتاهم ولا يصلّون عليهم، كما أن الأرض ترفض موتاهم، وتأبى أن تضمّهم في جوفها إذا ما قبروا فيها، وإذا ما نحروا بدّنتهم في مكة فإنهم يلقون لغبايهم أضلّ من تلك البهائم، تخيّر قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾^(٢)، و﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِيلُونَ﴾^(٣)، حين قال:

ولا يُصَلِّي على موتاهم أحدٌ ولا تقبلُ أرضُ الله ما قـبروا
إذا أتاخوا هداياهم لمنحـرها فهم أضلُّ من البُذْنِ الذي نحروا^(٤)

واندفع بقلب صفحات ذهنه ومخترن ذاكرته يبحث فيهما عما يناسب من معانٍ وصور يهجو بها قوم قيس عيلان الذين كانوا ذوي نعمة يرتعون بخيرها، حتّى وسوس لهم الشيطان وغرر بهم، فركبوا مركباً وعرأ يشبه ركوب ناقـة مسنة قد تساقط وبرها عن جسمها، فتذكّر قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً﴾^(٥)، و﴿كَفَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾^(٦)، إذ قال:

(١) شرح ديوان الأخطل، ص ٣٣٤.

(٢) سورة التوبة، الآية رقم ٨٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية رقم ١٧٩.

(٤) شرح ديوان الأخطل، ص ٤٦٦.

(٥) سورة إبراهيم، الآية رقم ٢٨.

(٦) سورة النحل، الآية رقم ١١٢.

كانوا ذوي إمّة، حتّى إذا علّقت
صكّوا على شارب، صعبٍ مراكبها
بهم حبائل للشيطان وابتُهِرُوا
حصّاء ليس لها قلب ولا وِبر^(١)

وخلع على كليب بن يربوع قوم جرير المذلة إذ لا يملكون زمام أمرهم،
فيقضي به الناس عنهم، وهم غفل لا يلمون بشيء ولا يشعرون به، مستوحياً ذلك
من قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٢)، إذ قال:

مخلفون ويقضي الناس أمرهم
وهم بغيّب وفي غمّاء ما شعروا^(٣)

ومن أفاتين التأثير القرآني في شعر الأخطل أن يعتمد أحياناً إلى أن يفرغ
معنى آية أو أكثر في بيت واحد، مستعيناً على ذلك بقسم من الألفاظ التي
تستعملها الآية نفسها بعد أن يغيّر في صيغها ما تتطلبه الضرورات الفنية في
الصياغة الشعرية، ومن أمثلة ذلك قوله:

وأهْجُرْكِ هِجْرَاناً جَمِيلاً وَيَنْتَحِي
لَنَا، مِنْ لِيَالِنَا الْعَوَارِمِ، أَوَّلُ^(٤)

فالبيت الشعري مقتبس من الآية الكريمة: ﴿... وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا
جَمِيلًا﴾^(٥)، وقوله:

(١) شرح ديوان الأخطل، ص ١٧٥.

(٢) سورة القصص، الآية رقم ٦٦.

(٣) شرح ديوان الأخطل، ص ١٧٧.

(٤) شرح ديوان الأخطل، ص ٢٦٤.

(٥) سورة المزمل، الآية رقم ١٠.

عفا واسط من آل رضوى قَنَبَلُ فَمُجْتَمَعُ الْحُرَيْنِ، فالصبرُ أجملُ^(١)

مقتبس من الآيتين: «.. فَصَبْرٌ جَمِيلٌ»^(٢)، و«فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا»^(٣)،
وقوله:

وقد لبست لهذا الدهر أغصنهُ حَتَّى تَجُلَّ رَأْسِي الشَّيْبُ واشتَعلا^(٤)

فالبيت الشعري تلخيص لمعنى الآية الكريمة: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
مِنِّي واشتعل الرأس شيباً»^(٥).

وقوله:

اليوم أجهذ نفسي ما وسعت لكم وهل تكلف نفس فوق ما تسع^(٦)

تلخيص لمعنى الآية: «لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا»^(٧).

(١) شرح ديوان الأخطل، ص ٢٥٩.

(٢) سورة يوسف، الآية رقم ١٨.

(٣) سورة المعارج، الآية رقم ٥.

(٤) شرح ديوان الأخطل، ص ٣٤٧.

(٥) سورة مريم، الآية رقم ٤.

(٦) شرح ديوان الأخطل، ص ٢١٠.

(٧) سورة النقرة، الآية رقم ٢٣٣.

وقوله:

وفي الرجال يراع لا قلوب لهم أعمار شُغَط، فما ضرّوا وما نفعوا^(١)

فالبيت الشعري تلخيص لمعنى الآيتين: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾^(٢)، و﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا...﴾^(٣).

وقوله:

كأنه ساجد، من تضحخ ديمته مسبح، قام نصف الليل، فابتها^(٤)

فقد قبس الأخطل المعنى من غير آية ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾^(٥)، و﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٦).

ومن أنماط التأثير القرآني الأخرى في شعر الأخطل إفادته من مغزى بعض القصص القرآني إفادة ذكية في مواطن من شعره كانت تقتضيه ذلك. فإذا ما هجا بني عامر إذ خلت ديارهم من الحكماء الذين ينهون أهلهم عن الغدر والمنكر، سلط الله عليهم التغليبين ليهلكوهم، تذكر ناقة صالح التي سلطها الله على ثمود فأهلكتها عندما جحدت بآيات ربها وعصت رسولها، فأرسل الله إليهم الناقة آية، يقول:

(١) شرح ديوان الأخطل، ص ٢٠٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية رقم ٢٦.

(٣) سورة المؤمنون، الآية رقم ٦٣.

(٤) شرح ديوان الأخطل، ص ٣٤٤.

(٥) سورة الزمر، الآية رقم ٩.

(٦) سورة الحج، الآية رقم ١٨.

ولما رأى الرحمن أن ليس فيهم رشيدة، ولا ناهٍ أخاه عن الغدر
أمال عليهم تغلب ابنة وائل فكانوا عليهم مثل راغية البكر^(١)

وفي هذا انكأ الأخطل على الآيتين الكريمتين ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾^(٢)، و﴿إِنَّا مَرْسَلُو النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ
وَاصْطَبِرْ﴾^(٣)، و﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾^(٤).

وعندما عزم الأخطل على هجاء نفي بن صفار المحاربي الذي لا يزال
يفخر بأيام بني قومه على التغليبين، قال له: لا تدع المعالي ولا تتجح بقدرتكسم
على مساورة الأعداء والقضاء عليهم، فإن قدرة التغليبين في القضاء على
أعدائهم تشبه حية موسى التي توسلها يوم أيده الله بنصره، قال:

تخل ابن صفار، فلا تذكر العلى ولا تذكرن حيات قومك في الذكر
فقد نهضت للتغليبين حية كحية موسى يوم أيد بالنصر^(٥)

مستمداً ذلك من الآيات القرآنية ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا
صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(٦)، و﴿أَلْقِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ

(١) شرح ديوان الأخطل، ص ٤٣٠.

(٢) سورة هود، الآية رقم ٦٤.

(٣) سورة القمر، الآية رقم ٢٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية رقم ٧٧.

(٥) شرح ديوان الأخطل، ص ١٥٩.

(٦) سورة طه، الآية رقم ٦٩.

مُبِين»^(١)، و«فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ»^(٢)، و«قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى»^(٣).

وأفاد الأخطل من قصص يوسف وهارون وداود ونوح عليهم السلام، عندما خاطب يزيد بن معاوية، منوهاً بما كان من أمر حمايته له بعد أن تشرّد في الهجرة، راجياً من الله أن يثيبه ثواب أولئك الأنبياء والأولياء إذ قال:

أَمَّا يَزِيدُ فَإِنِّي لَسْتُ نَاسِيَةً	حَتَّى يَغَيِّبَنِي فِي الرَّمْسِ مَلْحُودُ
جَزَاكَ رَبُّكَ عَن مَّسْتَقَرِّدٍ وَحَدٍ	نَفَاهُ عَنِ أَهْلِهِ جُزْمٌ وَتَشْرِيدُ
مَسْتَشْرِقٍ، قَدْ رَمَاهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ	كَأَنَّهُ، مِنْ سُمُومِ الصَّيْفِ، سَفُودُ
جَزَاءُ يُوسُفَ إِحْسَانًا وَمَغْفِرَةً	أَوْ مِثْلَ مَا جُزِيَ هَارُونَ وَدَاودُ
أَوْ مِثْلَ مَا نَالَ نِسُوحٌ فِي سَفِينَتِهِ	إِذَا اسْتَجَابَ لِنُوحٍ، وَهُوَ مَنْجُودُ
أَعْطَاهُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهُ	فِي جَنَّةٍ نِعْمَةً فِيهَا وَتَخْلِيدُ ^(٤)

مستمداً ذلك من الآيات القرآنية «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ..»^(٥)، و«ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا»^(٦)، و«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ»^(٧)، و«يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ»^(٨)، «.. وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَيْنُورًا»^(٩)، و«وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ

(١) سورة الشعراء، الآية رقم ٣٢.

(٢) سورة الشعراء، الآية رقم ٤٥.

(٣) سورة طه، الآيتان رقم ١٩، ٢٠.

(٤) شرح ديوان الأخطل، ص ٩٧.

(٥) سورة هود، الآية رقم ٤٨.

(٦) سورة الإسراء، الآية رقم ٣.

(٧) سورة يوسف، الآية رقم ٢١.

(٨) سورة يوسف، الآية رقم ٤٦.

(٩) سورة الإسراء، الآية رقم ٥٥.

يَسْبَحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ^(١)، و﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾^(٢)، و﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾^(٣)، و﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾^(٤)، و﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٥).

وجملة القول، لقد شاع القصص القرآني في شعر الأخطل عامة، وفي الشعر الذي هجا فيه أعداء تغلب، والذي مدح فيه خلفاء بني أمية خاصة، فقد كان للخلفاء صفة دينية بحسبانهم خلفاء الرسول الأكرم في رعاية رسالته، وكونهم قوامين على تطبيق أحكام القرآن، فكان لا بد للأخطل من أن يستعين بالقرآن حين يمدح الأمويين.

ولم يتوقف تأثر الأخطل بالقرآن عند هذا حسب، بل ظهر في شعره إشارات إلى أحكام القرآن، فعندما أراد هجاء بني كليب تذكر استباحتهم حقوق الجار وما يحفظ له من دمار، إذ قال:

ما زال فينا رباط الخيل معلّمةً وفي كليب رباط الذلّ والعار
النازليين بدار الذلّ إن نزلوا وتستبيح كليب مخرم الجار^(٦)

وإلى جانب هذه الأمثلة التي ذكرناها، نجد أن الأخطل قد استعمل في شعره مجموعة كبيرة من ألفاظ العصر الإسلامي ومصطلحاته، سواء منها ما

(١) سورة الأنبياء، الآية رقم ٧٩.

(٢) سورة النمل، الآية رقم ١٥.

(٣) سورة النمل، الآية رقم ١٦.

(٤) سورة سبأ، الآية رقم ١٠.

(٥) سورة ص، الآية رقم ٢٦.

(٦) شرح ديوان الأخطل، ص ٣٦٩.

ابتدعته هذه الحياة أم وجدته مستعملاً في اللغة، فحملته معنى من معانيها، فأصبح ذا صبغة إسلامية، ولما كانت الحياة الإسلامية قد تميزت بميدانين جديدين هما ميدان الحكم والسياسة وميدان الدين، فإن أكثر ما نجده من ألفاظ إسلامية في شعر الأخطل يتصل بهذين الميدانين، ولما كان ديوانه مليئاً بهذه المفردات سنكتفي بذكر أمثلة من كلتا المجموعتين من دون ذكر الصفحات.

فمن أمثلة المفردات والمصطلحات التي تتصل بالدولة والسياسة:

أمير المؤمنين، خليفة الله، الخلافة، أمين الله، الإمام، إمام الناس، الأنمة، أئمة الكفر، المظلوم.

ومن أمثلة المفردات والمصطلحات التي تتصل بالحياة الدينية الجديدة:

الحق، العفو، الصدق، الحمد، الصبر، الوفاء، السجود، المسجد، الإحسان، التقوى، تقى الله، العهد، ذو أمانة، ذو العرش، الرحمن، الجنة، الإسلام.

لقد أحدث القرآن هزة في الفكر العربي وأساليب تعبيره، وبات لأهل الرأي والثقافة مصدراً أساسياً في عملهم الأدبي، ولم يكن للأخطل الشاعر الذي حفلت بذكره أسواق الأدب وحلقات العلماء، أن يغفله ويصد عنه، ولعل مما زاد في اهتمامه بهذا السفر الجليل أنه واضع طاقته الفنية للإسهام في أحداث عصره، تلك الأحداث التي كان القرآن مدارها في ميادين الخلافة والسياسة والدين، ويضاف إلى ذلك أن ظروف عصره السياسية والقبلية كانت دفعت به إلى الوقوع في خصومة عنيفة مع شاعر مثله شهرة ومكانة فنية هو جرير، وكان جرير فيما يروى عنه ينتمي إلى أباء وعشيرة عرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير، وكان أبوه عطية متخلفاً في المال مبخلاً، فوجد الأخطل في هذه الصفات مجالاً للطعن في خصمه. ولهذه العوامل مجتمعة، أكثر الأخطل من ذكر القرآن

والرجوع إليه، وتزوّد منه بمادة لا تكاد قصيدة في ديوانه تخلو من إشارة إلى لون من ألوانها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ١- الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٣م.
- ٢- الحاوي، إيليا سليم، شرح ديوان الأخطل التغلبي، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨م.
- ٣- الخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق كارلوس ليال.
- ٤- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٣م.